تفسير ابن كثير

قال ابن جرير : يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب وهذا الذي قاله حسن ومناسبته وارتباطه جيد وقوله تعالى : { فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به } أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما وقوله تعالى : { ومن هؤلاء من يؤمن به } يعني العرب من قريش وغيرهم { وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون } أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيهات .

ثم قال تعالى : { وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك } أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى : { الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر } الاية وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم دائما إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم .

ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : هذا ما قاضي عليه محمد بن عبد الله فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : ثم أخذ فكتب وهذه محمولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي وتبرؤوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم وإنما أراد الرجل ـ أعني الباجي ـ فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال صلى الله عليه وسلّم إخبارا عن الدجال : [مكتوب بين عينيه كافر] وفي رواية [ك ف ر يقرؤها كل مؤمن] وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت صلى الله عليه وسلّم حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له قال الله تعالى : { وما كنت تتلو } أي تقرأ { من قبله من كتاب } لتأكيد النفي ولا تخطه بيمينك تأكيد أيضا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى : { ولا طائر يطير بجناحيه } .

وقوله تعالى : { إذا لارتاب المبطلون } أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة { وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا } قال الله تعالى : { قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض } الاية وقال ههنا : { بل هو

آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم } أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا يحفظه العلماء يسره ا عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا كما قال تعالى : { ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر } وقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه ا إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا] وفي حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم يقول ا تعالى : [إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانا] أي لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل لأنه قد جاء من الحديث الاخر [لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار] ولأنه محفوظ في الصدور ميسر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظا ومعنى ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم .

واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى : { بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم } بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا ولا تخطه بيمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ونقله عن قتادة وابن جريج وحكي الأول عن الحسن البصري فقط قلت وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس وقاله الضحاك وهو الأظهر وا أعلم وقوله تعالى : { وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون } أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه كما قال تعالى : { إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم }